اللغة الشعرية لدى معروف الرصافي وأثر الإيقاع فيها

د. ساجدة عبد الكريم خلف
جامعة تكريت/كلية القانون

المقدمة :

بدأت تباشير النهضة الحديثة تلوح في سماء الأدب في أخريات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ،فقد بدأ الشعراء العرب عموماً وشعراء العراق خصوصاً يتلمسون طريقهم نحو التجديد فراحوا يترجمون وجدانهم ومشاعرهم والواقع الذي يعيشونه، وبالطبع يبرز شعراء يخططون لان يكون لهم دورٌ بارزٌ في النهضة العربية الحديثة،بل ويدعون الى التجديد،وكان من أوائل الدعاة الى التجديد وحاملي رايته شاعرنا((معروف الرصافي ١٨٧٥م–١٩٤٥م)).

لم يكن شاعراً فحسب ،إنما كان من كبار شعراء عصره،ومَن تصفَّح ديوانه وقرأ أشعاره أستدل على إفتنانه في الشعر وعمق تفكيره ودقة تصويره ،يجيش بعواطفه القوية والتي تخبيء خلفها إنساناً من الطراز الأول في أبناء جيله وأكثر ما قرَّبه الى النشء العربي الجديد إنه يقول مايفهمون ويعبّر عما يحسون ويشعرون .

نظم في أغراضٍ عديدة منها المدح والفخر والرثاء والهجاء والعتاب والغزل، لكنه كان في كل تلك الأغراض مقلداً لنهج الاسبقين، كما نظم في أغراضِ أخرى حاول من خلالها ان يكون مجدداً كالعلوم الاجتماعية والفنون العصرية والاختراعات الحديثة ،إذ جمع في كل أغراضه بين التعبير اللغوي الفصيح والتعبير العامي الصريح والذي سيحاول البحث الوقوف عند لغته الشعرية ودورها في تجربته الشعرية بل والتجربة الشعرية المعاصرة لمدرسة المحافظين واثر الإيقاع في تلك اللغة .

الشعر والشاعرية لدى الرصافي

كان الرصافي من الثائرين على القديم ،تلك الثورة التي امتازت بالهدوء،اذ يقول:((أما التقليد إن كان في الأمور العقلية قبيح فهو في المسائل الأدبية أقبح))[١]،ويروح معبراً عن نظرته في التجديد بأنه ليس تقليداً للغرب،لان لكل أمة ثقافتها ودينها،ويحدد كل ما هو جديد،بقوله: ((إذا صَوَّر لك الشعر صوراً من الحياة أنت فيها فأطربك بأن أقامك وأقعدك ،وسَّرك أو أساءك ،وأضحكك أو أبكاك،وأنهضك أو اثبطك ،فأعلم إنه شعر جديد،وانه ليس من الشعر الذي هو نسخة طبق الأصل))[٢] .

ويمكنا أن نفهم كل ما كان يجيش في نفسه ويدور في خاطره من أفكار وآراء حول الشعر الجديد من خلال أشعاره، إذ صوّر لنا نظرته لذلك الشعر وكيف ينبغي أن يكون عليه ((إنه مرآة في الشعور تنعكس فيها صور الطبيعة بوساطة الألفاظ إنعكاساً يؤثر في النفوس أنقباضاً او إنبساطاً))[٣] ،بل وأكثر من ذلك فهو يعدّه مشتق من الشعور،بقوله:–

إذا كان من معنى الشعور إشتقاقه فما بعده للمرء غير جنونه(٤)

بذل الرصافي في جهوداً مضنية لكي يكون لشعره تأثير مباشر على أساس أن للشعر مغزاه الروحي وتأثيره النفسي الكبير،ويمكننا أن نستنبط نظرته الى الشعور والشاعرية ،بما يأتي:

١- الشعر يؤثر مباشرة على القائل والمتلقي معاً، ويبدو هذا التاثير في نقل عدوى الشعر من المبدع الى المتلقي ،ويرتبط ذلك بإلقاء النص الشعري(٥)، وعن ذلك يقول الرصافي:

وما الشعر إلاّ كل مارنح الــفتى كما رنحت أعطاف شاربها الخمر

وحرّك فيه ساكن الوجد فأغتدى مهيجاً كما يستنُّ في المرحِ المهر(٦)

والشعر لدى شاعرنا غذاء الروح الذي يشارك مع الفنون والعلوم في صقل النفوس وتنحيتها ،اذ يقول:-

ولـــــلأرواح كـــــالأجساد زاد به تنمو المشاعر والــحلوم

هو النغم الرقيق مـــن الــمثاني هو الأدب الرفيع من العلوم(٧)

فالشعر تعبير عن الشعور يمكن بواسطته اكتشاف المجهول والتحليق في رحاب النفس الإنسانية ومع ذلك لاتستطيع سبر كل أسرار النفس الإنسانية .

٢-يرى أن الشعر من الأمور الهامة التي تعتمد عليها الحياة، بل ولايمكن الاستغناء عنه، اذ يقول:-

هو الشعر لا إعتضاض عنه بغيره ولا عن قوافــيه ولا عــن فنونه

ولو سلبتنيه الــحوادث فــي الدُنا لما عشت أو مارُمت عيشاً بدونه(٨)

٣-الشعر يعني الخلود، لقائله :-

مــا مــات مــن تركتْ أقلامه صوراً خوالد من بنات ضميره

صوراً تــمثل ذاتــه وصــفاته حتى يقمن لــنا مــقام نشوره

فــكأنه وهــو الدفين بقـــبره حي يعيش بــحزنه وســروره

وكأنه في القوم ساعة حفلــهم مــتكلــم بنــظيمــه ونثيــره(٩)

٤- الشعر ابتكار وتوليد وتجديد المعاني والأفكار ، ويبدو ذلك جلياً في نظرته الى الجمع بين الشيء وضده ،كما في قوله:-

واللبيب الذي تعلم أتيا ن المعالي من خِسة الاوغاد(١٠)

ويرى شاعرنا في الموت راحة للإنسان بعد عناء الحياة :

إنما هذه الحياة جرح أثخنتنا والموت مثل الضماد(١١)

٥- الشعر لديه يعني المعاصرة والحداثة ،مواكباً للتطوير ،فيقول:-

وأجود الشعر ما يكسوه قائله بوشي ذا العصر لا الخالي من العصر

لايحس الشعر الاّ وهو مبتكر وأي حــسن لشــعرٍ غيــر مبتكر(١٢)

المعجم الشعري لدى الرصافي

يتصل المعجم الشعري على وجه عام (بلغة العصور جميعا)[١٢] ،بيد أن الشاعر (ينمي أسلوبه الخاص.. تبعاً لذوقه ومزاجه)[١٤] ،زد على ذلك التطورات الحضارية المحيطة به وتحصيله المكتسب[١٥] .

لنأتي على المعجم الشعري لدى شاعرنا ،سنجده يتألف من مادة لغوية تقليده ومولدة ،استمد شاعرنا مادته اللغوية من القران الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي القديم وبعض من الأدب النثري والمعارف القديمة البسيطة،وعلى صعيد اقتباسه من القران الكريم والذي لم يقتصر على ألفاظٍ مفردة بعينها* ،بل تعداه أحياناً الى إقتباس آيات بكاملها،كما متمثل ذلك بقوله:-

تراهم سكارى في العذاب وما هم سكارى ولكن من عذاب مشدد[١٦]

حيث إقتبسها من قوله تعالى :﴿ **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾[١٧] .

ومن ذلك أيضاً:-

لعل الله يحدث بعد أمراً لنا فيخيب منهم من يخيب[١٨]

وهذا البيت مقتبسٌ من قوله تعالى:﴿ **وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً**﴾[١٩] .

كما إقتبس بعض المفردات أو المعاني من الحديث النبوي الشريف،مثل ذلك :-

فراح بأذن العلم ينطق مقولا عرفنا به أن البيان من السحر[٢٠]

وقد ورد المعنى في قول الرسول الأعظم محمد (ﷺ):((إنَّ من البيان سحرا وان من الشعر لحكمة))[٢١] ،كما تناقض مع الشعر العربي القديم ،من خلال قوله:

عفا رسم مغني العز منها كما عفت ((لخولة أطلال ببرقة ثهمدِ))[٢٢]

أما الإشارة الأدبية والتاريخية فتتمثل في ذكر(أسماء الأعلام من رسل الملوك وخلفاء وقادة وشعراء وفلاسفة وما يقترن بهم من آثار فكرية من أديان ومذاهب وكتب،كما تبدو في شعره أسماء بلدان ومدن ومفردات سياسية ،بما تتضمنه من حوادث ومناسبات وحروب)[٢٣]، والى جانب المعجم التقليدي هناك معجم آخر هو المعجم المولد الذي يستمد لغته من لغة الصحافة والترجمة والعلوم من لغة الحياة اليومية، وارتبط هذا المعجم بأسماء الأعلام العربية والأجنبية والوقائع والعادات والتقاليد الاجتماعية وتبدو هذه الظاهرة من شعر الرصافي على وجه اشمل من شعراء جيله الذين يمثلون المنهج التقليدي.

ومن ذلك محاولة الجمع بين المفردات التي لارابطة بينها وبين الأجنبي والعربي القديم ،فيتجسد ذلك في قوله:

رقى من أعاليها الفنغراف منبراً محاطاً بأصحاب غطارفة غرُ[٢٤]

حيث جمع بين (الفنغراف وغطارفة) او الجمع بين المولد والقديم ومثل ذلك:-

فالفن مقياس الحضارة عند مَنْ حازوا الرقي وناطحوا العيوقا[٢٥]

ولم يخرج الرصافي في من استعمال الكلمات المولدة والمستعربة ،خصوصاً وهو يعلم علم اليقين أن من يتسامح في استعمال بعض الكلمات التي لم ترد في قاموس يعيبه ((المحافظون)) ويتهمونه بإفساد اللغة وأحياء القبيح وإماتة الفصيح،ولكن نقف هنا موقفاً وسطاً،إذ لايصح ان يتهم شاعرنا كبير كالرصافي بمثل هذه التهمة ،لان الدخيل في شعره قليل جداً ،وحتى في استعمالاته القليلة هذه كان يمهد لها السياق ليفهمها المتلقي، هدفه هو نشر اللغة وإحياء غريبها وتوسيع دائرة التخاطب بها،ومن تلك الكلمات على سبيل المثال لا الحصر (مُكوئِدّ) أي الارعش من الكبر،و(الخَشَأَمْ) أي الانف و(السُّعار) أي شدة الجوع و(الالال) أي الباطل ،وغيرها[٢٦] .

الصياغة الشعرية

لم يختلف دراسو شعر الرصافي بان صياغته الشعرية تتألف من الغريب والتقليدي والدخيل والمولد وحتى العامي الذي ينحدر الى الابتذال ،وفي بعض الأحيان يختلط بعضها بالأخر، مثل هذا النزوع الى الغرابة بين اثر اللغة التقليدية والذي لا يقتصر على المفردات وحسب،بل يتعداه الى صلب النسيج اللغوي لشعره،متمثلاً في عدد كبير من الصيغ والأساليب والتشبيهات والمجازات التقليدية والتي تصل الى الاحتذاء او التضمين الجزئي او الكلي،مثل ذلك:-

(وبيضة خدرٍ) إن دعت نازح الهوى أجاب الا لبيكِ يابيضة الخدرِ[٢٧]

وهنا يذكر بيت لامرئ ألقيس قي معلقته وهو تضمين كليّ،اما التضمين الجزئي او مايعرفُ(بالاستعارة) والتي لم تقف عنده باللفظ فقط بل تعدته الى الصورة أيضا ،متاثراً ببيت طرفة ابن العبد:-

وجوهٌ عليها للشحوب ملامحٌ ((تلوح كباقي الوشمِ في ظاهر اليد))[٢٨]

كما يقول:-

مثلت بها الأغصان وهي منابر وقلتّ بها الخطباء وهي طيور

للـــنرجس المطول ترنو أعين فـــيها وتـــبسم للآقاح ثغور[٢٩]

كما تضمن شعره الكثير من المحسنات البديعية التقليدية كالطباق والجناس،ومن التجنيس قوله :-

يقيني شر فريتكم يقيني بأن الله مطلعٌ رقيب[٣٠]

كما حفل شعره بظاهرة (التكرار) وهو أسلوب بياني تقليدي يرمي الى تقوية المعنى وإيضاحه[٣١]،عن طريق استحضار الألفاظ والصيغ ويتم ذلك أما باستدعاء قرائن حسية او أعادة صيغ وأنماط إنشائية او خبرية ،كما هو في شعر النهج التقليدي ،كقوله:-

وان لم يكن شعري من الشعر لم يكن لعَمرُ النهي للشعر عند النهي قدرُ[٣٢]

كما كان له استعمالات قديمة عفا عليها الزمن ،إذ انه يستعمل كلمات لاجود لها في لغتنا المعاصرة ،إذ يقول في قصيدة ((بعد النزوح))

أنا ابن دجلةَ معروفاً بها أدبي وإن يك الماء منها ليس يُرويني[٣٣]

وهذا البيت يحمل بين ثناياه تاثراً بشاهدٍ معروف في كتب النحو:((أنا ابن دارة معروفاً بها حَسَبي)) كما يقوده التقليد الى استعمال مواد لغوية نادرة لانجدها في الأدب القديم او في لغة التنزيل الشريف[٣٤]،مثل ذلك قصيدة ((نحن منطاد)) .

ولم تك اللغة التقليدية هي سيدة الميدان في شعره، إنما خالطت ألفاظ وأساليب مثلت لغة العصر ايضاً،حتى أمكننا القول إن لديه(معجماً تقليدياً) الى جانب (معجم مولد) حافل بالألفاظ الدخيلة والحديثة والعامية ،كما وتبدو لدارس اللغة الشعرية لدى الرصافي(ظاهرة عدم تجانس البنية اللغوية للبيت او القصيدة وهو ليس إلاّ الوجه الآخر لإضطراب الرؤية وتفككها،تلك الرؤية لاترى في الكلمة أكثر من كونها دلالة على معنى((المطابقة)) دون النظر الى ما تنطوي عليه من طاقات ايحائية وصوتية)[٣٥] **،وهذا ما يذكرنا بقول الرصافي :-**

إنما العلم من معاجز عيسى كم جهول أحياه (وهو على جنازة)
إن عقل الفتى ليصبح بالعلمُ رزيناً بكف من قد رازة[٣٦]

وكذلك : -

تركوا النساء بحالةٍ يرثى لها وقضوا عليها بالحجاب تعصبا
قل للألى ضربوا الحجاب على النسا أفتعلمون(بما جرى تحت العبا))[٣٧]

ولما كان اسلوب التعبير عن الفكر يجري في شعر الرصافي بطريقة تراكيمة ضمن البيت والقصيدة ،فان الربط بين أجزاء الفكر يتم اما باستخدام أنماط لغوية تقليدية او باستخدام صيغ وأدوات ذات طبيعية محدودة الدلالة هي الأخرى،وهذا مايكرس (الطابع النثري) للغة هذا الشعر ،ومن تلك الأدوات والصيغ حروف العطف(الواو، الفاء، ثم) وبعض الظروف مثل (اليوم ،حيث،حين) وبعض(أسماء الإشارة) وشاهدنا على اللغة النثرية لديه، قوله:-

لقد شاهدت مبتهجاً بعيني له في مصر آثاراً كباراً
ففي (الكبرى) له متحركات تخلد في البلاد له الفخارا
معامل مارست غزلاً ونسجاً فأغنت في صناعتها الديارا
وفي الإسكندرية باخرات له في البحر تبتدر السفارا[٣٨]

ولم يهاجم الرصافي هذا اللون من الادب،بل (راح يتاثر به وسمّاه الشعر الصامت واستحسنه ،إذ يقول: واما الشعر المنثور العاري من الوزن والقافية،فهو شعر بالمعنى الاعم،أي شعر بمعانية التي تفعل في النفس مايفعل الانشاد المقترن بالنغم والايقاع ...وسمي الشعر المنثور بالشعر الصامت لعدم اقترانه بالغناء والرقص ،وسمي المنظوم بالناطق لاقترانه بذلك ،اما انا فأستحسن الشعر المنثور واقول به من حيث إنه خير واسطة لانباط القرائح واثارة العواطف)[٣٩] ،ولقد

قادته تلك النثرية الى صيغ مولدة حدّ الابتذال ،منها:-

إنما الحق مذهب الاشتراكية فيما يختص بالاموال[٤٠]

وقوله ايضاً:-

فـــهذه حـــالة نسواننا وهي لعمري حالةٌ مؤلمة

ما هكذا ياقوم ما هكذا يأمرنا الإسلام بالمسلمة[٤١]

ليس ذلك فحسب ،بل ان القافية تضطره الى ان يأتي بالمبتذل الذي يقربه من العامية[٤٢] ، مثل قصيدة ((وقفة على البسفور)): -

وقفت على البسفور والريح عاطف وللدوح ظل دونه متقلصُ

الى قوله :-

تعاليتُ عن تبكيتهِ اذ رايتهُ جهولاً على علاّته يتعنفص[٤٣]

ويخرج شاعرنا عن المألوف من الفصيح في بعض استعمالاته كما في ((مشهد الكائنات)) : -

وقد يفتري المال الفضائل للورى وليس لهم مما افتراه نصيب[٤٤]

ومن الظواهر اللغوية الأخرى من شعره (ظاهرة السرد) التي تظهر في الحكايات المنظومة لتعبر عن قدرة الشاعر في المنظومات الطويلة ومنها المنظومات الفكرية (التاريخية ، الفلسفية)،ويبدو ذلك في قصيدة (جالينوس العرب،ابو بكر الرازي)، كما تبدو(ظاهرة التقرير) في شعره وفي قصائده ذات الموضوعات العلمية[٤٥] .

إضطراب لغته الشعرية

لايمكننا أن ننكر إن مهمة الشاعر في تكوين البنية الشعرية مهمة شاقة،لانه مسؤول عن تخيرَّ اللفظ الذي يمنح الصورة ،واللذان يعطيان بالتالي إيقاعاً موسيقياً ينسجم مع الفكرة والموضوع ،وهذا ما عبرت عنه نازك الملائكة،بقولها(اللغة كنز الشاعر وثروته وهي جنينته الملهمة في يدها مصدر شاعريته ووحيه،فكلما ازدادت صلته بها وتحسسه لها،كشفت عن اسرارها المذهلة وفتحت له كنوزها الدفينه) [٤٦]، ولكن الشاعر اذا لم يكن مخططاً لعمله الشعري-إن صح القول -يقودنا ذلك الى البحث عن تجربته الشعرية او ثقافته من خلال المعارف التي استقاها في عصره عاكساً لنا ثقافته ذلك العصر،متاثراً به ومؤثراً بمن حوله . واذا ما اطلينا على واقع عصر الرصافي،نجد انه تلقى معارف ذات طبيعة تقليديه لاتختلف عن تلك التي تلقاها معاصروه ،نشأ في بيئة سياسية كانت السلطة فيها غربية عن الوطن(تركية) جعلت من العراق مورداً لجباية الضرائب والخدمة الإلزامية في الجيش ومصدراً يمولها بالمواد الخام،وكانت أصول المعرفة مقتصرة على بعض حلقات التدريس والمناسبات الدينية ،لان لغة الدولة هي التركية ولغة الناس هي العامية، مما ادى الى انحسار التراث العربي،ولم يجد الرصافي في مقتبل حياته الدراسية ما يتأثر به ويحفظه اكثر من شواهد الفية بن مالك على الرغم من اضطراب وشذوذ

قسم كبير منها[٤٧] .

مما تقدم يبدو لنا ان الملكة اللغوية لشاعرنا تفتحت على عربية مهجنة ذات طبيعية نثرية والنصوص الادبية التي ينبغي الاطلاع عليها كانت –على قلتها– لاتدرس من اجل قيمتها الفنية ،بل بوصفها وسيلة تعليمية ،والعلوم(العقلية والنقلية) التي درسها الرصافي كانت تمثل مايدور في بيئة بغداد من معارف وثقافات لها طابع العلوم العصرية ،والتي هي اما علوم طبيعة خالصة واما معارف وأفكار تحمل رياح التغيير ،هذه المعارف تحمس لها شاعرنا وظهرت ي دعوته الى التجديد في الشعر الذي وجد فيه وسيلة للدعوة الى هذه الأفكار، وبما أن الشعر كان يتألف – آنذاك من معنى ومبنى– تتجلى قيمته في معناه،اتجهت دعوة شاعرنا الى التجديد في المعاني والأفكار ويكون الشعر العصري هو ماتضمن من أفكار عصرية،أما المبنى فانه وسيلة لنظم هذه الأفكار ،وتبدو جودته في التعبير عنها بوضوح وانسجام[٤٨]، كما في قوله:–

وأرسلته نظماً يروق إنسجامهُ فيحسبه المصغي لإنشادهِ نثرا[٤٩]

وفي شعره شواهد كثيرة لاتحتاج الى شرح، بل تجدها بسيطة وواضحة الى درجة تشك انها شعراً او نثراً ،فها هو، واصفاً شعره:–

فإني ما اطلعتُ شمس حقيقةٍ لمستمع الا لتغرب في السَّمع

ولستُ أبالي بعد افهام سامعي أكان بخفض لفظ ما قلت أم رفعِ[٥٠]

فلو حوِّلت اغلب قصائده الى نثر، لكانت من أفضل المقالات النثرية في عصره خاصة تلك التي نضمت في العلوم الاجتماعية والفنون العصرية والاختراعات الحديثة[٥١] وهنا كان من الضروري ان ننبه الى عدم إهمال وضح المتلقي ومستواه الثقافي ،فبسبب عصور القهرو ولاضطهاد الفكري والسياسي التي عاشتها الأمة العربية أنذاك ،ظلت الأغلبية الساحقة ترزح تحت الجهل والتأخر،وعلى الرغم من ذلك لايجده بعض النقاد مسوغاً للشاعر على حساب مستوى الشعر الجديد في اللجوء الى التبسيط والسهولة والسطحية ،فهذه امور يجب ان يحذرها الشعر الجديد.

لكننا يجب ان لانغفل مسألة مهمة اذ لم يك اطلاع في على نماذج من الادب الجديد واسعاً،لانه لم يكن يعرف لغة اجنبية– وهذا يُعدّ نقصاً في الثقافة– لذا لم يتمكن من استلهام روح التجديد والافادة من التقنيات المتقدمة التي كان الادب الجديد يبتكرها لا سيما المسائل الجوهرية في فن الادب، مثل (وحدة الموضوع) وعلاقته (بالشكل والمضمون) ،وعليه فقد ظل هذا الشعر يخضع عملياً للمقاييس الموروثه[٥٢]، ويقتصر التجديد فيها على (إبدال الافكار القديمة بافكار عصرية وتطعيم اللغة القديمة بمفردات وعبارات عصرية والتحلل من بعض قيود الصنع في الشكل القديم)[٥٣] .وهذا ما عبرّ عنه العلامة الاستاذ (عبد القادر المغربي) اذ يراه يلتقي مع البحتري في نقطة كونهما شاعري الفاظ وناشري ديباج،ومع المتنبي في نقطة اخرى كونهما يستخرجان

المعاني الدقيقة والتعبير عنها بالفاظ جزلة واسلوب فخم ويضمن شعره الامثال والحكم والتلاميح الى قضايا العلم والفلسفة والتاريخ ،وهو بذلك مقلد لا مجدد،من ذلك قوله :-

لعــمرك أن الــحرّ لايــتقــــيدُ الاّ فــلـيــقلْ ما شاءَ في المفندَّ

أذا أنا قصدّتُ القصيد فليس لي به غــير تبيان الحقيقة مقصدُ[٥٤]

مما تقدم يبدو لنا أن اللغة لدى شاعرنا استخدمت أداة قائمة بذاتها عبر شكل إيقاعي قائم بذاته،،وبهذا تكون القصيدة أفكار ومفردات وشكل تعبيري إيقاعي،وكما نعرف أن نواة التعبير هي الكلمة المفردة لا الجملة ،وهي الفكرة لا الصورة[٥٥].

وفي مطلع القرن العشرين ازدادت مهمات الشعر،بسبب ارتباط الشاعر بالدولة،او بسبب تنوع شؤون الحياة العامة ،أمام هذه الأوضاع اتسمت رؤية الرصافي بالاضطراب بين الموروث والمعاصرة ،فمن جهة قاده الفصل بين (الذات والموضوع)[٥٦] ،الى اضطراب رؤية الشاعر لموضوعهِ بين النظر اليه بالقياس الى الماضي او الحاضر ،او بتعبير أكثر شمولية اضطراب الرؤيا بين الموروث والمعاصر.

وقاده الفصل بين (الشكل والمضمون)[٥٧] -على صعيد التعبير- مقترناً بما ألقاه تنوع موضوعات الشعر واتساع أغراضه وتعدد مستويات النظر اليها على اللغة من تبعات جديدة الى اضطراب لغة هذا الشعر مما سوَّغ للشاعر الفصل بين الشكل والمضمون من جهة أخرى،رؤيا المضطربة تلك نتذكر من خلالها أبياته وهو ينظر الى بلاد الرافدين محدثاً أياها:-

نظرتُ أليها من خلال ذوارفٍ من الدمع طرفي بينهنَّ كليل

فكنت كراءٍ من وراء زجاجة بعينيه كيما يستبين ضئيل[٥٨]

إضطراب معجمه الشعري بمفرداته وصيغة،قاده الى اضطراب الأساليب وطرق الصياغة الى جانب تقليد او احتذاء الأساليب الموروثة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر القديم؛[٥٩] لذلك نراه يقف من اللغة وقفة مترددة حائرة (فهي عنده وسيلة لأداء المعنى ،ولكن هذه الوسيلة على سعتها وقدرتها وتوفرها له، قد قصرت لديه فلن يستطيع ان يفرغ فيها معانيه المختلفة ولن يقدر أن يترجم بها عن دقائق الصور)[٦٠].

ولم يستطع الإيقاع العربي إنقاذ الرصافي من الوقوع في دائرة النثرية والتقديرية في شعره،على الرغم من شيوع فكرة أن القصيدة الشعرية(ليست التعبير الأمين عن عالم غير عادي، أنما هي التعبير غير العادي عن عالم عادي)[٦١]، إذ ترتب على اتخاذه الشعر مجرد إطاراً مسبقاً لإحتواء المعنى من دون التنبيه الى خصائصه الشعرية الأصلية ،مما ادى الى اضطراب التناسب والانسجام بين البنية اللغوية داخل البيت والايقاع الخارجي.

مما تقدم يمكن القول أن ضيق الشاعر بوحدة القافية كان وراء كتابة القصائد بمقاطع مختلفة القوافي وانه لم ينظر نظرة متكاملة الى الشعر انما اقتصر تناوله على الموضوع ،مثل ذلك

قصيدة (الفقر والسقام)[٦٢] فهي تجسد ما ذكرناه.

إضطراب الإيقاع

لايختلف اثنان ما للموسيقى –الايقاع– من إثرٍ فاعل في الخطاب الشعري،لأنها بتآزرها مع الصورة تقيم بنية القصيدة العامة وتوفرها، وبدون تلك الموسيقى ينحدر الشعر إلى مستوى باهت لايمكن عندها ان نسميه شعراً،وإنما سيكون نثراً،اذن لاشعر من دون موسيقى .

وعلى أساس هذا الفَهمْ سننظر ما إذا كان الرصافي قد اقترب أو ابتعد بموسيقاه من الإيحاء الشعري المألوف .

فالقضية اذن ليست أطار (بقدر ما هي قضية الشاعر،لان الإطار في ذاته ليس حجة للشاعر ولاحجة عليه، وهيهات أن يكون الشاعر شاعراً لمجرد تملصة من كل قيد إيقاعي سوى وحدة التفعيلة ، وهيهات ايضاً أن يكون شاعراً لمجرد التزامه بالصيغة الشعرية[٦٣].

وتأسيساً على هنا التصور وجدنا أن شاعرنا لم يخرج عن أوزان الخليل،فالوزن عنده ضروري ،بل راح يحتل في شعره مكانه بارزة ،حتى أنه ليبدو كالإطار المعّد سلفاً لاحتواء المضمون ،لذلك برزت ظاهرة (انفصال الشكل عن المضمون)ويبدو ذلك في المظاهر التي سبقنا الى رصدها الدكتور (عدنان العوادي) في كتابه[٦٤] ، مما الزمنا –البحث –أن نوجز أهمها،وهي:–

١– إهمال الخصائص الثابتة لكل بحر بالرغم من سيادة الحس التقليدي حتى جاءت نسبة البحور الطويلة عالية جداً قياساً بالبحور القصيرة ،والطويل والخفيف والبسيط والكامل والوافر أعلى نسبة من البحور المجزوءه .

٢– عدم المواءمة بين طبيعة البحر الإيقاعية وطبيعة المضمون ،حيث اختار القصيدته(بداعة لاخلاعة)[٦٥] ،والتي نظمت على البحر الخفيف، وهذا لا يتماشى مع موضوع القصيدة .

٣– افتقار قصائده الى الوحدة الموضوعية في حين يبدو عليها التنوع في الإيقاع؛وهذا كفيل بخلق ارتباك بين الغرض من القصيدة وطبيعة البحر الشعري.

٤– تنوع المعجم الشعري لدى شاعرنا دفعه الى استخدام الكثير من الضرورات الشعرية والتجاوزات اللغوية .

٥– عمد شاعرنا الى إدخال بعض التسهيلات التي خففت من ضوابط نظام الإيقاع في شعره وأدت الى الاضطراب الذي يؤدي الى الغرابة المتأتية من فقدان الشاعر للمهارة المطلوبة في التعامل مع اللغة؛ فان القافية قد تكون مصدر اغراب حتى لو بنيت على أكثر الحروف دوراناً في اللغة العربية فحرف(الراء)، في قوله:–

وأقاموا لهم بها كل صرح مشمخرّ بناؤه اشمخراراً[٦٦]

ويمكن أن تكون القافية مبعث رتابة لدى الشاعر(قافية التاء السهلة كثيراً ما نحى فحالها الشعراء القدامى ،لابسبب السهولة ولكن بسبب ما تشيعه من رتابة وجمود وبخاصة أذا ركبت حركة

المتواتر)[٦٧] .

وفضلاً عما تقدم تراه نوّع القافية في بعض قصائده ،على الرغم من انه تنوع محدود ويقترب من نظام الموشحات ،وقد يأتي بقصيدة في أكثر من مقطع ولكل مقطع قافية مثل قصيدة (دموع الصداقة)[٦٨] ،وهي مقطعات وكل مقطع خمسة عشر بيتاً كان الأول منه قافية اشطره الأولى الفاء المفتوحة وقافية اشطره الثانية العين المفتوحة:-

عبد المجيد قضى فوا آسفاً ماذا يفيد تأسفي جزعاً

والثاني قافية اشطره الأولى الباء المفتوحة ،وقافية اشطره الثابتة الباء المكسورة:-

عبد المجيد قضى فوا حَرَبا ماذا يرد إليَّ واحربي [٦٩]

أن الاختلاط في المعجم الشعري واتساعه وتراكم الصياغة على صعيد البيت والقصيدة المصحوب بالخضوع الى وحدة الوزن والقافية ،ادى الى أخلال تام بالمحافظة على الضوابط المعتمدة في نظام الإيقاع واللجوء الى الأغلاط،لذا بدا عنده الإيقاع مضطرباً هشاً وهذا كله قد برأ الشعر الحديث منه أخيراً وتلك الأغلاط التي عفا عليها الزمن ،ومن تلك العيوب (الايطاء) [٧٠]في قوله:-

نفضت من الدنيا يدي لانني تعرفت منها ما بها من خلائق[٧١]

وكذلك (سناد الإشباع) :-

عــقل وتــجربة وجــدٌ زائدُ هذي صفات حازها المتقاعد

علمتُ تجاربكم وايقن رأيكم إن الحــياة تعاونٌ وتعاضدُ[٧٢]

ومن اضطراب البحور عنده ،في قوله:-

قل لعبد الوهاب النائب العلا مة الحبرْ منجب النجباء[٧٣]

ومن ركوب(القوافي النفر) كالسين والصاد والزاي والطاء والواو، وحسنٌ هنا ان نَّذكر بقصيدة (في ليلة نابغية)[٧٤] والتي كان من قوافيها (مخترط، شمط-ينمعط -يستعط- تلطوا-يسترط – خرطوا-يمتخط -ألاقط...)وكذلك في قصيدة (تموز والحرية)[٧٦].

أما القصائد الحافلة (بمستهجن القوافي)فقصيدته الثنائية(الانكليز في سياستهم) والتي من قوافيها((العث،الفرث، الكرث، النبث، الطث..الخ)) ويبدو ان استعماله لتلك القوافي التي قادته الى استعمال (الدخيل المبتذل) من الالفاظ ودليلنا على ما قلناه :-

ويجيد تقطير العواطف للورى فتــخاله لقــلوبهم انبيْقا[٧٧]

فلفظه (أنبق) دخيلة على العربية ، أما دليلنا على المبتذل ،فقوله:-

إن السماحة والشجاعة و العلى جمعت لعمري في ((ابي عبعوب))[٧٨]

كما كانت هناك ضرورات في الأسلوب كالزيادة والحذف والتقديم والتأخير، نبدا بشاهدنا على (الزيادة) قوله:-

وما الحق الا هو الاتكال على شرف جاء من والد[٧٩]

اما شاهدنا على (التقديم والتأخير) ،فقوله:

لاتعجبن الذي عقل يروح به لينتج الشر خيراً غير منتظر[٨٠]

وقد عبرَّ(عدنان العوادي) عن ذلك ،بقوله(وهكذا قاد استعمال اللغة على غير نظام في الشعر الى جعل الوزن مجرد أطار على الشاعر أن يملاه بأي طريقة ،فشعره حافل بألوان الزيادات التي غالباً ما تحيله الى نثر موزن ،حتى لايكاد ينمو من هذه الظاهرة إلا القليل من هذا الشعر)[٨١] .

هذا وان نظام الإيقاع لدى شاعرنا بدلا من أن يتحول الى أطار مموسق يجمع الشكل بالمضمون ويآزر اللفظ بالمعنى إستحال الى اطارٍ هش مضطرب غير قادر على ان يرتفع بلغته عن النثر الذي ينزع الى التفصيل النثري أحياناً،كما في قوله :-

جاد شخص عليه بعد سؤال بريال ،وزاد نصف ريال[٨٢]

من كل ما تقدم نخلص الى القول:إن محاولات التجديد كانت على طرفي نقيض، اذ بعضها لم يفلح في التحرر من قيود نظام الايقاع او تخفيفها،بل اقتصر على اجراء تحويرات شكلية وجزئية مع الابقاء على المقاييس التقليدية لوحدة القصيدة واسلوب البناء، مما ادى الى اضطراب هذه البنية لغةً وايقاعاً، اما البعض الاخر فيدل باننا يجب الا نبخس حق الرصافي في محاولاته التجديدية تلك ،اذ اننا لانعدم وجود بعض الثمرات وان كانت محدودة، كقوله: -

اليك الـــيك يابغداد عني فأني لست منك ولست مني

ولكن، وان كبر التجنّي يـــعز يـــأ بـــغداد انـــي

أراك على شفا هول شديد[٨٣]

ولابد لنا من كلمة حق نقول فيها من غير الممكن للحركة الشعرية في العراق ان تنهض وتنتقل من مرحلة التقليد الى التجديد إنتقالاً مباشراً من دون التمهيد لها، هذا التمهيد الذي كان اشبه بمخاض عسير عايشه الرصافي ليصل بنا الى (بوادر التجديد) الذي لاحت ولادته على يديه في عصره هو ومن عاصره من الشعراء.

الخاتمة

❖ – ان اللغة التي استخدمها الشاعر بما تتسع لأنواع البلاغة قد استعيرت من التراث الأدبي التقليدي من جهة والتي إستخدمت بمستوى بياني –تراكمي،باعتبارها وسيلة ايضاح ليس الاَّ من جهة أخرى وفي ذلك دلالة واضحة على انفصال الشكل عن المضمون.

❖ –ان العلاقة بين الكلمة والمعنى علاقة مباشرة ،وعليه فالاستخدام المباشر للغة هو الأساس في شعره ،واعزو ذلك الى كثرة وتنوع الموضوعات التي عالجها قادته الى تنوع المادة اللغوية واختلاط بعضها ببعض ،بحيث غدا الطابع النثري سائداً فيها، ويبدو لنا ان مما عمّق النثرية لديه في شعره ووسع من رقعته لديه، التأثر الواسع بلغة النثر، والتي كانت تمتزج بدوافع الاقتراب من لغة الحياة.

❖ –أراد الرصافي أن ينقل لنا صورة الحياة الجديدة بلغة تخلط بين القديم والجديد ،مما أدى ذلك الى وقوع الشاعر في دائرة الاضطراب في احيان كثيرة .

❖ – لم يتمكن شاعرنا من تحديث لغته الشعرية بشكل كامل،وأنما اكتفى بتقديم نماذج لغوية تستوعب لغة عصره بشكل كامل.

❖ – أطلق دعوات نظرية لتجديد اللغة الشعرية وقام بمحاولات جزئية لتحقيق هدفه الذي يسعى من اجله .

❖ – مثل شاعرنا موقفاً وسطاً بين التقليد والتجديد.

❖ – على الرغم من كل العقبات الا أن جهود الرصافي في تجديد اللغة الشعرية أسهمت اسهاماً فاعلاً في بعث بوادر التجديد في لغة الشعر العراقي الحديث.

الهوامش

١- جريدة الأمل ،العدد(٣٣)،٨تشرين الثاني ،١٩٢٣م.

٢- المجلة الجديدة ،ج٤، السنة الخامسة ،ابريل (نيسان–١٩٣٦م):٦٣.

٣- دروس في تاريخ آداب اللغة العربية :٤٩،نقلاً عن:في الشعر العربي الحديث،د. احمد مطلوب،ط١،بغداد، ٢٠٠٢م:١٥.

٤- المجموعة الكاملة للرصافي ،بيروت،طبع مكتبة الحياة :١٩٨من قصيدة (انا والشعر).

٥- ينظر– في الشعر العربي الحديث:١٩.

٦- الديوان نفسه :١٩٣((خواطر شاعر)).

٧- الديوان نفسه:١٩٣((بين الروح والجسد)).

٨- الديوان نفسه :١٩٨((أنا والشعر)).

٩- الديوان نفسه:٣٣٩((رثاء شوقي شاعر مصر الاكبر)),

١٠- الديوان نفسه :١٨((نحن على منطاد))

١١- الديوان نفسه :١٨((القصيدة نفسها)).

١٢- الديوان نفسه :٦٤((سياسة لاحماسة)).

١٣- الشعر كيف نفهمه ونتذوقه،اليزابيث دور،ترجمة محمد ابراهيم الشوش،بيروت، ١٩٦٤: ٨٧.

١٤- المصدر نفسه :٨٧.

١٥- ينظر: رماد الشعر، د. عبد الكريم راضي جعفر،ط١، بغداد ١٩٩٨م: ١٢٩.

*– ومثل تلك الألفاظ ((الحسنات، السيئات ،الآيات ،سقر، سعير ،نعيم ...))راجع الديوان نفسه:١/٣٦٥، ٣٦٩، ٣٧٥، ٣٨٦، ٤٧٣، ١٩١.

١٦- الديوان نفسه :٤٥((السجن في بغداد)).

١٧- سورة الحج: ٢.

١٨- الديوان نفسه :٢/١٤٤.

١٩- سورة الطلاق :١.

٢٠- الديوان نفسه :١٠((العالم شعر)).

٢١- صحيح البخاري–كتاب النكاح،باب الخطيئة ،رقم الحديث(٥١٤٦).

٢٢- الديوان نفسه ٤٢، ((السجن في بغداد)) .

٢٣- لغة الشعر الحديث في العراق،د. عدنان حسين العوادي،بغداد ،١٩٨٥م:٢٥٥.

٢٤- الديوان نفسه :١٠((العالم شعر)) .

٢٥- الديوان نفسه:٥٨١((الفنون الجميلة)).

٢٦- ينظر –الديوان نفسه:٥٨١(الفنون الجميلة) مقدمة ديوان الرصافي(طبعة مصر)بقلم الاستاذ عبد القادر المغربي،ط٣.

٢٧- الديوان نفسه:٩((العالم شعر)) .

٢٨- الديوان نفسه :٤٥((السجن في بغداد)).

٢٩- الديوان نفسه :٢٢٧((وقفة في الروض)) .

٣٠- الديوان نفسه :٢٥٩((قصر البحر)) .

٣١- ينظر- دروس في البلاغة وتطورها،جميل سعيد:٢٦١-٢٧١.

٣٢- ديوانه :١٨٤(خواطر شاعر)).

٣٣- الديوان نفسه :٤٢٦((بعد النزوح))

٣٤- ينظر- لغة الشعر بين جيلين ،د.ابراهيم السامرائي،بيروت،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،١٩٨٠م: ٦٥.

٣٥- لغة الشعر الحديث في العراق: ٢٧٤.

٣٦- الديوان :٨٩((العلم والأجازة فيه)) .

٣٧- الديوان نفسه:٣٤٦((حرية الزواج عندنا)).

٣٨- الديوان نفسه :٥٦١((الرصافي يحي وفد مصر الشقيقة)).

٣٩- مجلة الحرية ،ج١، السنة الاولى ،تموز، ١٩٢٥م :١٦.

٤٠- الديوان نفسه :٤٣١.

٤١- الديوان نفسه :٣٤٨((المرأة المسلمة)) .

٤٢- للتوسع ينظر- لغة الشعر بين جيلين: ٦١.

٤٣- الديوان نفسه :٢١٧((على البسفور)) .

*- يتعنفص: البذيئة والقليلة الحياء من النساء.

٤٤- الديوان نفسه :٥ ، في مشهد الكائنات، ويريد الشاعر هنا انهم براء من هذا الافتراء،اذ ليس لهم نصيب من الفضائل، فكأنه جعل فضائل الاغنياء كذباً محضاً تفتريه أموالهم .

٤٥- للتفصيل ،ينظر-تطور الشعر العربي الحديث في العراق،علي عباس علوان،،منشورات وزارة الإعلام ،ط١، ١٩٧٥م: ٢٨٤،وما بعدها .

٤٦- الشاعر واللغة ،نازك الملائكة ،مجلة الآداب، ع ١٠، تشرين الأول ،١٩٧١: ١١.

٤٧- للتفصيل ،ينظر- الرصافي آراؤه اللغوية والنقدية ،د. احمد مطلوب: ٤٧٤، وذكرى الرصافي ،عبد الحميد الرشودي:٢٢٠.

٤٨- ينظر- لغة الشعر الحديث في العراق: ٢٤٠-٢٤١.

٤٩- الديوان نفسه:٥١((في سبيل حرية الفكر)) .

٥٠- الديوان نفسه :٣٤٤((نساؤنا)).

٥١- ينظر- لغة الشعر الحديث في العراق :٢٤١.

٥٢- للتوسع -راجع:تطور الشعر العربي الحديث في العراق:١٦٠-١٦٣.

٥٣- لغة الشعر الحديث في العراق: ٢٤٤.

٥٤- ديوانه :٧٤((في المعهد العلمي)) .

٥٥- ينظر - تطور الشعر العربي الحديث في العراق:٩٨،وما بعدها.

٥٦- ينظر - ديوان الرصافي :٧٦/١، وشاهدنا في الفصل بين (الذات والموضوع)قصيدة ((الأرض)) .

٥٧- ينظر -الديوان نفسه :٥٨١/١،وشاهدنا في الفصل بين الشكل والمضمون قصيدة ((السفر في التومبيل)) .

٥٨- الديوان نفسه :٢/ ٢٤٨.

٥٩- ينظر- لغة الشعر الحديث في العراق/ ٢٤٨.

٦٠- لغة الشعر بين جيلين :٦٢.

٦١- بنية اللغة الشعرية ،جان كوهن ، ترجمة إبراهيم الولي :١١٣.

٦٢- الديوان نفسه: ٦٤.

٦٣- ظاهرة الإيقاع في الخطاب الشعري ،د. محمد فتوح احمد :٢٥.

٦٤- للتفصيل – راجع ،لغة الشعر الحديث في العراق: ٢٩٤،وما بعدها .

٦٥- الديوان نفسه:٢٨٣.

٦٦- الديوان نفسه :١٥١((الشارع الكبير ببغداد)) .

٦٧- تطور الشعر العربي الحديث في العراق:٢١٤– ٢١٥.

٦٨- الديوان نفسه:٣١٤.

٦٩- الديوان نفسه:١٦٨/١((دموع الصداقة))، وينظر– (تنوع القوافي) لدية ضمن:٧٩/١، ٢/٢، ٦٥/ ٦٨، ٢٠٧، ٤٩/٤، ١٢٨، ١٩٤، ١٩٨، ٢٠٨، ٢١٢.

٧٠- ينظر –تطور الشعر العربي الحديث في العراق:٢٩٤.

٧١- الديوان نفسه:٤٨((الدهر والحقيقية)).

٧٢- الديوان نفسه: ١٦٧((الى المتقاعدين)).

٧٣- الديوان نفسه:٥١٢((الى عبد الوهاب النائب)).

٧٤- الديوان نفسه :٤٠٥.

٧٥- الديوان نفسه :٣٨٨.

٧٦- الديوان نفسه :٤٦٧.

٧٧- الديوان نفسه :٨١((الفنون الجميلة)) .

٧٨- الديوان نفسه :٥٣٦((رئيس الدائنية)).

٧٩- الديوان نفسه :١٦١((ميت الأحياء وحي الأموات)).

٨٠- الديوان نفسه :١٦٥((مثنيات شعرية)).

٨١- لغة الشعر العراقي الحديث:٣٠٤.

٨٢- الديوان نفسه :٢٨٨/١.

٨٣- الديوان نفسه :٣٣٣/١.